التأويل البلاغي للتشبيه في(فتح البيان لمقاصد القرآن) لمحمد صديق خان

الباحث: محمد علي محمد علي غريب
أ.د/ جمال عبد الحميد زاهر

الملخص باللغة العربية:

يكشف كتاب (فتح البيان لمقاصد القرآن) عن عقيدة صافية ودعوة إلى الكتاب والسنة وذم التقليد والجمود ومحاربة الشرك والبدع والخرافات، وقد جذب اهتمامنا في الكتاب مناقشاته المتنوعة والمتعددة للآراء البلاغية في تفسير الآيات القرآنية حيث يخالف البلاغيين في تأويل مفردات علم البيان، ويدلل على ذلك بالسياق وتنوعه، مما دفعني للكتابة في هذا الموضوع.

يتكون البحث من مقدمة ومبحثين وخاتمة على النحو الآتي:

المقدمة: تتضمن موضوع البحث ودوافعه ومنهجه وخطته والدراسات السابقة.

المبحث الأول: يتناول:

أ- صديق خان وحياته العلمية.

ب- التعريف بكتاب (فتح البيان في مقاصد القرآن).

المبحث الثاني: التأويل البلاغي للتشبيه.

الخاتمة: وبها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

الملخص باللغة الإنجليزية:

The book (Fath Al-Bayan li Maqasid Al-Quran) reveals a pure belief and a call to the Book and Sunnah، and condemns imitation and stagnation، and fights polytheism، innovations and superstitions. Our interest in the book was attracted by its diverse and multiple discussions of rhetorical opinions in interpreting the Quranic verses، as it differs from rhetoricians in interpreting the vocabulary of rhetoric، and demonstrates this with the context and its diversity، which prompted me to write on this topic

The research consists of an introduction، two chapters and a conclusion as follows:

Introduction: Includes the topic of the research، its motives، methodology، plan and previous studies.

The first chapter: Addresses:

A- Siddiq Khan and his scientific life.

B- Definition of the book (Fath Al-Bayan fi Maqasid Al-Quran).

The second chapter: The rhetorical interpretation of similes.

The conclusion: It includes the most important results reached by the research.

مقدمة:

العلامة صديق خان هو الإمام العلامة المحقق محيي السنة وقامع البدعة أبو الطيب محمد صديق بن حسن بن علي بن لطف الله القِنَّوجِي البخاري نزيل بهوبال، ويرجع نسبه إلى زين العابدين بن علي بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب.

ولد في بلدة (بريلي) موطن جده من جهة الأم عام (١٢٤٨ هـ) ونشأ في بلدة " قِنَّوْج " موطن آبائه بالهند في حجر أمه يتيمًا على العفاف والطهارة، تلقى الدروس في علوم شتى على صفوة من علماء قِنَّوْج ونواحيها .

وكانت له موهبة إلهية في الكتابة والتأليف؛ حتى قيل إنه كان يكتب عشرات الصفحات في يوم واحد، ويكمل كتابا ضخما في أيام قليلة، ومنها كتب نادرة على منهج جديد، وعندما ساعدته الظروف المنصبية والاقتصادية على بذل المال بذل الكثير على طبع كتبه وتوزيعها، وقد تكللت مساعيه العلمية بنجاح منقطع النظير. ولم يثنه زواجه بأميرة بهوبال الغنية، واشتغاله بالشؤون السياسية والإدارية عن نشاطه العلمي، ولم تصرفه بحبوحة العيش ومناصب الدولة عن خدمة العلم والدين، بل استفاد – بثاقب فكره – من هذه النعم لتحقيق هدفه الأسمى وغايته الأرفع.

موضوع البحث وأهميته:

يكشف كتاب (فتح البيان لمقاصد القرآن) عن عقيدة صافية ودعوة إلى الكتاب والسنة وذم التقليد والجمود ومحاربة الشرك والبدع والخرافات، وقد جذب اهتمامنا في الكتاب مناقشاته المتنوعة والمتعددة للآراء البلاغية في تفسير الآيات القرآنية حيث يخالف البلاغيين في تأويل مفردات علم البيان، ويدلل على ذلك بالسياق وتنوعه، مما دفعني للكتابة في هذا الموضوع.

أهداف البحث:

١- خدمة كتاب الله- عز وجل- ونصرة معجزة رسوله- صلى الله عليه وسلم.

٢- التعريف بهذا العلامة الجليل، وبيان قيمة علمه ومدى الاستفادة منه.

٣- التعرف على كيفية تعامل صديق خان مع النص القرآني في مواجهة الآراء المتعددة في تفسيرات المفسرين السابقين.

٤- بيان حدود استفادته من نظرية التأويل القرآني بما فيها من التفسيرات البلاغية وقيمتها.

الدراسات السابقة:

أولا: الرسائل الجامعية:

١- محمد مهدي علي الحمودي: القنوجي وآراؤه التفسيرية على ضوء أقوال أئمة التفسير من سورة الذاريات الآية ٣١ إلى آخر سورة الناس- رسالة دكتوراة- كلية الدراسات العليا- جامعة أم درمان الإسلامية- ٢٠١٥م.

هدفت الرسالة إلى دراسة آراء السيد صديق حسن خان القنوجي في تفسيره فتح البيان من سورة الذاريات إلى آخر سورة الناس.

تكونت الرسالة من مقدمة وبابين وخاتمة، على النحو الآتي:

* المقدمة: تحدث فيها عن مشكلة البحث، وأهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة على تفسير فتح البيان، وحدود البحث، وخطته.

* الباب الأول : صديق حسن خان القنوجي، وتفسيره فتح البيان، وهو على فصلين.

الفصل الأول : التعريف بالإمام القنوجي وعصره.

الفصل الثاني : التعريف بتفسير فتح البيان في مقاصد القرآن وبيان منهجه.

* الباب الثاني: صديق حسن خان القنوجي وآراؤه التفسيرية على ضوء أقوال أئمة التفسير من سورة الذاريات الآية ٣١ إلى سورة الناس، وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: آراؤه التفسيرية في علوم القرآن.

الفصل الثاني: آراؤه العقدية.

الفصل الثالث: آراؤه الفقهية.

الفصل الرابع: آراؤه الاجتماعية.

الفصل الخامس: آراؤه في الآيات الكونية.

الفصل السادس: آراؤه اللغوية.

٢- خالد حمود محسن: صديق حسن خان ت ١٣٠٧هـ والمسائل النحوية والصرفية في تفسيره فتح البيان في مقاصد القرآن: تطبيقا على الأجزاء الخمسة الأولى من القرآن الكريم: دراسة وصفية تحليلية- رسالة دكتوراه- كلية الدراسات العليا -جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية-٢٠١٥م.

عنيت الرسالة بدراسة المسائل النحوية والصرفية في السدس الأول من القرآن الكريم من كتاب فتح البيان في مقاصد القرآن للشيخ صديق حسن خان،

اتبعت المنهج الوصفي التحليلي في الدراسة النحوية والصرفية، وبيان رأي صديق حسن خان في هذه المسائل، ومقارنتها بأقوال النحاة، وبيان الرأي الراجح للنحاة في المسألة،

جاءت الرسالة في أربعة فصول:

الفصل الأول: تكلم الباحث فيه عن شخصية صديق خان، حيث تكلم الباحث عن مولده، وحياته العلمية، وشيوخه، وتلاميذه، ومؤلفاته، ووفاته.

وأما الفصل الثاني: فتكلم الباحث فيه عن منهجية صديق حسن خان في كتابه فتح البيان، حيث اعتمد في منهجه على تفسير القرآن بالقرآن، وبالسنة، وبأقوال الصحابة.

وأما الفصل الثالث: فتكلم الباحث فيه عن المسائل النحوية التي تناولها صديق حسن خان، ودراستها نحويا، بعد مقارنتها بآراء النحاة، وبيان اتفاقهم واختلافهم فيها.

وأما الفصل الرابع فتكلم الباحث فيه عن المسائل الصرفية التي تناولها صديق حسن خان ودراستها دراسة صرفية، بعد مقارنتها بآراء النحاة، وبيان اتفاقهم واختلافهم فيها.

ثم ختمت الرسالة بملخص لأهم النتائج والتوصيات، ثم فهارس الآيات، والأحاديث، والأشعار، والأعلام، والأماكن والبلدان، والمصادر والمراجع، والمحتويات.

٣- أحمد حماد عبد الستار: ترجيحات الشيخ القنوجي في تفسيره فتح البيان في مقاصد القرآن من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة التوبة.. عرض ودراسة تقييمية- رسالة دكتوراة –كلية أصول الدين – الجامعة الإسلامية العالمية- باكستان- ٢٠١٧م.

هدفت الدراسة إلى جمع ترجيحات الشيخ القنوجي واختياراته في تفسيره والوصول إلى الحقيقة حول مسألة: هل القنوجي ناقل فحسب؟ أم هو صاحب رأي؟ والوقوف على منهج القنوجي في الترجيحات والاستدلال.

وحاولت الدراسة أن تجيب عن بعض التساؤلات منها:

* ما القول في أن القنوجي لا تظهر شخصيته في تفسيره؟
* هل للشيخ صديق خان ترجيحات في الأقوال التفسيرية؟
* ما الأصول والقواعد التي يرجح على أساسها في تفسيره؟
* ما الصيغ التي يستخدمها في الترجيح؟

تكونت الدراسة من مقدمة وتمهيد وبابين وخاتمة، عالج الباب الأول التفسير والترجيح وأقسامهما ومنهج القول فيهما، وعرض الباب الثاني ترجيحات الشيخ القنوجي في التفسير.

توصلت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها:

* أن القنوجي لم يلتزم في ترجيحاته الفقهية مذهبا فقهيا معينا بل كان ينحو ناحية ابن تيمية تارة، وتلميذه ابن القيم تارة ثانية، ومدرسة الشوكاني تارة ثالثة وهكذا، فيذكر الأقوال ويرجح ما يراه موافقا للدليل من وجهة نظره.
* لا يخلو ترجيح القنوجي من مراعاة القواعد الأصولية والتفسيرية المتعلقة بالترجيح.
* اقتفى القنوجي أثر سلف هذه الأمة في إثبات العقيدة فأثبت صفات الله – تعالى- على الوجه الذي يثبته أئمة الهدى من غير تحريف ولا تعطيل ولا تجسيم.

ثانيا: الكتب المطبوعة:

- محمد اجتباء الندوي: الأمير صديق حسن خان – حياته وآثاره- الناشر: دار ابن كثير- دمشق- سوريا- ٢٠١٧م.

يتعلق موضوع الدراسة بحياة الأمير صديق حسن خان ومؤلفاته.

والدراسة مقسمة إلى أربعة أقسام على النحو الآتي:

* القسم الأول يتعلق بمجتمعات الهند قبل عصر الأمير صديق حسن خان وأحوال أسرته.
* القسم الثاني يتعلق بحياة الأمير صديق حسن خان وعصره.
* القسم الثالث ذكر فيه الأمير صديق حسن خان ومعاصريه وكشف فيه عن مذهبه وأعماله.
* القسم الرابع تحدث فيه عن آثار الأمير صديق حسن خان ومؤلفاته ودرسها دراسة نقدية.

ثالثا: المقالات:

١- كمال غفور عبد الكريم: الظواهر الدلالية في" فتح البيان في مقاصد القرآن" لصديق خان القنوجي "ت. ١٣٠٧ هـ" – مجلة كلية التربية للبنات- جامعة تكريت – ٢٠٢٢م.

اعتمد الباحث في دراسته المنهج الوصفي، حيث هدف البحث إلى إبراز الجهود الدلالية للشيخ صديق خان القنوجي في تفسيره (فتح البيان في مقاصد القران)، والاستدلال بالشواهد الشعرية لشعراء قدماء ومحدثين، وأقوال وآراء لكبار علماء التفسير قديما وحديثا، حيث انصب تركيز البحث على بعض الظواهر الدلالية كالتطور الدلالي، والترادف، والتضاد، والمشترك اللفظي، والتقابل الدلالي، وبيان رأي القنوجي في التفسير.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة ومبحثين وخاتمة على النحو الآتي:

المقدمة: تتضمن موضوع البحث ودوافعه ومنهجه وخطته والدراسات السابقة.

المبحث الأول: يتناول:

أ- صديق خان وحياته العلمية.

ب- التعريف بكتاب (فتح البيان في مقاصد القرآن).

المبحث الثاني: التأويل البلاغي للتشبيه.

الخاتمة: وبها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

المبحث الأول:

أ- صديق خان ومكانته العلمية.

هو أبو الطيب صديق بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني القَنّوجي البخاري، ونسبه يعود إلى الإمام زين العابدين علي بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- كما ترجم لنفسه في كتابه أبجد العلوم، ثم لما تزوج ملكة بهوبال لقب بصديق حسن خان، وخان تعني ملك، ولقب أيضا بالنواب صديق حسن، وذلك لأنه ناب عن الملكة في شؤون الملك.

ولد صديق خان سنة ١٢٤٨هـ، في الهند، ببلدة بريلّي وهي موطن آباء أمه (نجب النساء بيكم) ابنة مفتي بريلي الشيخ محمد عوض العثماني، وبقي هناك حتى فقد أباه وقد أتم من عمره خمس سنوات، فعادت به أمه إلى بلدة بريلي، فنشأ يتيماً في حجر أمه التي رعته وعينت له مدرسًا للقرآن الكريم .

درس صديق خان في البداية على علماء قنوج –على عادة الطلبة في زمانه– الفارسية ثم مبادئ النحو والصرف بالعربية وبعض الفقه، ثم رحل لمدينة كانبور فدرس بعض كتب البلاغة العربية، وقد كان أصدقاء أبيه يتعهدونه بالرعاية والتعليم.

ثم شد رحاله إلى (دلهي) عاصمة الهند سنة ١٢٦٩هـ، وكانت — آنذاك– تعجّ بالعلماء، فأكمل دراسة مختلف الفنون وبرع فيها بما حباه الله – عز وجل– من ذكاء وفطنة، وعاد فدرس المنقول والمعقول على عدد من العلماء حتى أصبح صديق خان من أبرز رموز أهل الحديث في زمانه.

ومن نماذج ثناء العلماء عليه قول محمد الظاهري:" كان صديق حسن خان آية من آيات الله في العلم والأخلاق الفاضلة والتمسك بالكتاب والسنة، وصرف مما آتاه الله من المال والجاه في خدمة الإسلام والدين، ونشر علم الحديث والدعوة إلى العقيدة الصحيحة والعمل بالكتاب والسنة وإعانة العلماء والأدباء".

يصفه أستاذه حسين بن محسن اليماني بأنه: " البارع في سائر العلوم، الجامع بين منطوقها والمفهوم، وكم له من تآليف مفيدة، ورسائل عديدة، في كل فن من الفنون ما بين تفسير وحديث وغير ذلك، أظهر فيها شموس البراهين، واحتوت على جمل من الفوائد النفيسة للمستبصرين، فلقد أجاد فيها وأفاد، وقرر ما نقله عن الجهابذة النقاد، فعند ذلك أخرست براهينه ألسنة المعترضين".

وقال عنه علامة الشام عبد الرزاق البيطار: " سيد علماء الهند، كان مليا بالعلوم، مجتهداً في إشاعتها، مجدداً لإذاعتها، أحيا السنن الميتة بالأدلة البيض من السنة والقرآن".

وقد ألف المفسر العظيم صديق خان عددا من المؤلفات التي ما زالت محل دراسة وتفتيش لكل الباحثين والعلماء، وأهم هذه المؤلفات:

– الدين الخالص: وهو من أجلّ مؤلفاته بالعربية، وقد جعل المؤلف الكتاب قسمين، وعبر عنهما بالنصيب الأول والنصيب الثاني، وطبع بالقاهرة في أربعة أجزاء، وخصص النصيب الأول لمباحث التوحيد، والنصيب الثاني لمباحث الاعتصام بالسنة واجتناب البدع، وجاء الكتاب حافلا بمباحث التوحيد والسنة، وسماه المؤلف:الدين الخالص مقتبسا اسمه من قوله– سبحانه وتعالى– : أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِص، ولم يدع المؤلف آية من آيات التوحيد الواردة في القرآن إلا أتى عليها بالبيان الوافي لإثبات التوحيد الخالص، ونفي الشرك بجميع أنواعه وأصنافه، وكان غاية في الترغيب في اتباع السنة ورد البدعة بأقسامها وأطرافها، مع الرد على تحريف الغلاة، وتأويل الجاهلين، وإفراط المتعصبين، وتفريط المبطلين.

– الروضة الندية شرح الدرر البهية: وهو شرح لكتاب مختصر للإمام الشوكاني في الفقه، فقام الأمير بذكر الوفاق والخلاف في المسائل بأدلتها وترجيح ما يدل عليه الدليل الأقوى دون التزام مذهب بعينه، ومن جودة هذا الكتاب أن الشيخ الألباني كان يدرسه لطلبته في دمشق سنة ١٩٥٦م.

- إكليل الكرامة في تبيان مقاصد الإمامة: وقد ألّفه بعد زواجه بالأميرة شاه جهان وتوليه المسؤولية بالنيابة عنها، فقد احتاج إلى أن يضع خطة ومبادئ يلتزم بها، فكتب في مقدمة الكتاب: " حملني الخاطر على تأليف رسالة فيها جوامع من الخلافة والسياسة الإلهية والإمامة النبوية".

في ١٣٠٧هـ، أصيب بمرض الاستسقاء، واشتد عليه المرض وأصبح طريح الفراش وقامت زوجته الملكة برعايته والتخفيف عنه، وفي آخر ليلة فتح عينيه وكانت أصابعه تتحرك وكأنها تكتب لكثرة ما فعل ذلك من قبل، وسأل عن كتابه الأخير (مسائل الإحسان) الموجود في المطبعة وإن كانت قد انتهت طباعته؟ فقيل له: سيصل خلال يومين، ثم استيقظ من نومه وسأل عن الوقت فقيل له: إنها الواحدة ليلا، وطلب الماء وقال: أحبّ لقاء الله، واحتضر وفاضت روحه، في ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٠٧هـ – ١٨٩٠م، عن عمر ٥٩ سنة، رحمه الله وتقبله في الصالحين، وكانت جنازته عظيمة حضرها الآلاف وكان قد أوصى أن يدفن على السنة والتزمت زوجته بذلك ودفن قرب حديقة(نظر باغ).

وكانت وفاته وفاة عالم كبير محدّث جليل، مؤلف عبقري، محيي الكتاب والسنة، داعية عظيم، إداري محنك، حاكم عادل، محب للخير، والصبر والإحسان، وحريص على الرفاهية والازدهار، والرخاء للإنسانية والبشرية جمعاء، فلم تكن وفاته خسارة لفرد دون فرد، وجماعة دون جماعة، وفئة دون فئة، بل كانت خسارة الأمة الإسلامية كلها".

ب– التعريف بكتاب " فتح البيان في مقاصد القرآن":

فتح البيان في مقاصد القرآن أحد كتب تفسير القران الكريم، ألفه محمد صديق خان، نهج فيه النهج السلفي في التفسير بالبعد عن الآراء الشخصية والموضوعات الجدلية والمذهبية والكلامية، واعتمد فيه الآثار والمرويات، وتقيد بفهم السلف والأئمة المتبعين، ولذلك وجد الكتاب تقبلا من العلماء من مختلف البلاد وأثنوا عليه.

يعد الكتاب من أهم كتبه، ومن أفضل كتب تفاسير القرآن الكريم، أنجزه سنة ١٢٨٩هـ وبلغ عدة مجلدات، وقد شجعته على تأليفه زوجته الأميرة شاه جهان ودعمته لينجزه وخصصت له مطبعة خاصة، وطبع لأول مرة سنة ١٢٩٠هـ.

ولا شك أن كتاب (فتح البيان في مقاصد القرآن) درة نادرة بين كتب التفسير، لأن مؤلفه أبا الطيب صديق خان – نتيجة لمدارسته كتب التفسير المختلفة– وعى حقيقة مهمة وهي أن بعض كتب التفسير لا تخلو مما دسه الأعداء وأهل الأهواء على الإسلام، بقصد هدم هذا الدين المتين عن طريق الدسّ والوضع حينما أعيتهم الحيل من النيل منه عن طريق الحرب والقوة أو عن طريق الدليل والحجة، فجرد

حسامه وبرى يراعته للدفاع عن كتاب الله تعالى، فقرأ جُلّ ما كتب الأقدمون وتبين له أن النحوي ليس له هم في تفسيره إلا الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه وإن كانت بعيدة، والفقيه يكاد يسرد في تفسيره الفقه جميعًا وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي ربما لا تعلّق لها بالآية أصلًا، والإخباري ليس له شغل إلا القصص واستيفاؤها والإخبار عمن سلف سواء أكانت صحيحة أو باطلة، والمبتدع ليس له إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد، والملحد: لا تسأل عن كفره وإلحاده في آيات الله وافترائه على الله.

اختار الشيخ صديق خان أن يكتب تفسيرًا خاليًا من الخرافات التي يقوم الدليل على بطلانها، وكذلك الجدل المذهبي والمناقشات الكلامية، فجمع بين الرواية والدراية مع تجديد ما طال به العهد، وقصر للطالبين فيه الجد والجهد، إيقاظًا للنائمين، وتحريضًا للمتثبطين، فاختار صفوة الصفوة مما ثبت من التفسير النبوي لأنه الحجة المتبعة التي لا يسوغ مخالفتها، ثم تفاسير عظماء الصحابة المختصين برسول الله ﷺ، ثم تفاسير التابعين ومن بعدهم من سلف الأمة وأئمتها المعتبرين، ثم أهل اللغة العربية الذين يفسرون كتاب الله باللغة العربية حقيقة ومجازًا إن لم تثبت في ذلك حقيقة شرعية تراعي النقل عن السلف أو رعاية الأصول المعتبرة أو قواعد اللغة العربية.

كان شيخنا في تفسيره يتحرى الدقة والصحة فيما ينقل، إن ذكر حديثًا عزاه إلى رواية من غير بيان حال الإسناد لأنه أخذه من الأصول المعتبرة.

وقد سلك في أمور العقائد وفق منهج السلف وخاصة في آيات الصفات، وبالجملة فإن تفسيره تنزاح عنه شبه المبطلين وتحريف الغالين وتأويل الجاهلين، خلى من كثرة الحشو والدخيل والخرافات التي لا يقوم عليها دليل. فكان درة بين كتب التفسير.

إن تفسير الشيخ – رحمه الله– يتميز من بين التفاسير الإسلامية بأسلوب ميسر، وتنظيم حديث، وعبارات ميسورة الأخذ والفهم، وإيضاحات جيدة مع العناية بوجوه الدراية والرواية وما إلى ذلك من روعة اللغة والبيان.

يتميز التفسير كذلك بأنه يستند على الكتاب والسنة، ويخلو من الأفكار الشخصية والآراء الذاتية، ويبعد كل البعد عن الابتداع، وشُبه المبطلين، وتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، ويحتوي في طياته على فوائد كثيرة، وعوائد غزيرة، تكاد تكون التفاسير الأخرى خاليةً منها.

فهذا التفسير وإن كبر حجمه فقد كثر علمه، وتوفر من التحقيق قسمه، وأصاب غرض الحق سهمه، مفيد لمن أقبل على تحصيله، مفيض على من تمسك بذيل إجماله وتفصيله، وقد اشتمل على جميع ما في كتب التفاسير من بدائع الفوائد، مع زوائد فرائد، وقواعد شوارد، من صحيح الدراية وصريح الرواية.

ومن ميزاته أنه تفسير يخلو عن الطويل الممل والقصير المخل، ومجرد عن القصص والأعاريب المملة، والأقوال غير المرضية، كما تحدث به الشيخ رحمه الله:

" ووطنت النفس على سلوك طريقة، هي بالقبول عند الفحول حقيقة، مقتصراً فيه على أرجح الأقوال، وإعراب ما يحتاج إليه عند السؤال، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية، وقصص وأعاريب محلها كتب العربية ".

ومن أبرز المزايا التي يتحلى بها " فتح البيان " أنه تفسير جامع بين الرواية والدراية.

لأجل هذا كله أطنب العلماء في ذكر الكتاب وتقريظه والثناء عليه، يقول محمد بن عبد الله بن حميد مفتي الحنابلة معلقا على الكتاب: "أبدع في هذا التفسير الجليل الذي لم يبعد ولا أظن يوجد له مثيل، وسماه بفتح البيان في مقاصد القرآن، وانتقى فيه لباب التأويل، وكشف فيه عن أسرار التنزيل، واعتمد على الآثار الواردة، وترك ضعاف الأقاويل".

المبحث الثاني: التأويل البلاغي للتشبيه.

وجد صديق خان أن في القرآن الكريم عدة تشبيهات متنوعة ما بين: التشبيه المرسل والتشبيه المفصل والتشبيه التمثيلي والتشبيه البليغ التي وقف عليها في هذا التفسير العظيم الذى يشمل مجموعة من الأساليب البلاغية الراقية، ومن هذه التشبيهات التي وردت في تفسير فتح البيان لمقاصد القرآن:

أولا: التشبيه المرسل:

لوحظ في تفسير صديق خان أن له طريقتين في تأويل التشبيه المرسل هما:

الطريقة الأولى: تأويل التشبيه على ظاهر الآية:

* في قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ العَذَابَ أَنَّ القُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العَذَابِ) (البقرة – ١٦٥).

وفي تشبيه تكاملت أطرافه من المشبه وهو تفوق حب المؤمنين لله على حب الكافرين للأصنام ووجود الأداة الكاف مع وجود وجه الشبه، كما في قوله: " (والذين آمنوا أشد حبا لله) فإنه استدراك لما يفيده التشبيه من التساوي أي إن حب المؤمنين لله أشد من حب الكفار للأنداد، لأن المؤمنين يخصون الله – سبحانه – بالعبادة والدعاء، والكفار لا يخصون أصنامهم بذلك بل يشركون الله معهم ويعترفون بأنهم إنما يعبدون أصنامهم ليقربوهم إلى الله " (١).

* في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً) (النساء– ٧٧) ،

وفي هذه الآية تشبيه خوف بعض الناس من القتال كخوفهم من الله تعالى وهو تشبيه مرسل ، كما يقول صديق خان:" (يخشون الناس)، أي يخافون مشركي مكة (كخشية الله أو أشد خشية) أو للتنويع على أن معنى خشية بعضهم كخشية الله وخشية بعضهم أشد منه " (٢).

* في قوله تعالى: (وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً) (النساء- ١٢٩).

تشبيه الزوجة الثانية المائل عنها بالشيء المعلق وهو تشبيه مرسل تكاملت أركانه، كما يقول صديق خان: " (فتذروها) أي الأخرى الممال عنها، (كالمعلقة) التي ليست ذات زوج ولا مطلقة تشبيها بالشيء الذي هو معلق غير مستقر في الأرض، أي لا أيما ولا ذات زوج، وقرأ أبي بن كعب: فتذروها كالمسجونة لا هي مخلصة فتتزوج ولا هي ذات بعل فيحسن إليها."(٣).

* في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الماءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (الأعراف- ٥٧)

وفي الآية تشبيه مرسل في تصوير إخراج الموتى من القبور أحياء كإخراج النبات من الأرض، كما في قوله تعالى: (كذلك) أي مثل إخراج الثمرات (نخرج الموتى) من القبور يوم حشرهم بعد فنائهم ودرس آثارهم، والتشبيه في مطلق الإخراج من العدم " (٤).

* في قوله تعالى: " مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ" (هود- ٢٤)،

وهو تشبيه مرسل في تشبيه الكفار بالفريق الأعمى والأصم، وتشبيه المؤمنين بالفريق البصير والسميع مع اكتمال أركان التشبيه ووجود الأداة، كما يقول صديق خان:" (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع)، ضرب للفريقين مثلا وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصم وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع، على أن كل فريق شبه بشيئين أو شبه بمن جمع بين الشيئين، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى والصمم، والمؤمن شبه بمن جمع بين السمع والبصر، وعلى هذا تكون الواو في (الأصم) وفي (السميع) لعطف الصفة على الصفة ".(٥)

* في قوله تعالى: (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الكَافِرِينَ) (هود- ٤٢)،

حيث شبه أمواج البحر في علوها كالجبال مع توفر أركان التشبيه ؛ ويقول صديق خان: "(كالجبال) شبهها بالجبال المرتفعة على الأرض، أي كل موجة منه كالجبل في تراكمها وارتفاعها وعظمها."(٦)، وفي هذه

الآيات والأمثلة جميعها لجأ صديق خان إلى الوقوف أمام ظاهر الآيات واستخراج التشبيه الظاهر من الآيات دون تأويل.

الطريقة الثانية: تأويل الآية على كافة أوجه البيان :

وفي هذه الطريقة لجأ إلى تأويل الآيات لتحتمل نوعين بلاغيين:

* في قوله تعالى: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (البقرة – ٧٤)،

تشبيه مرسل تتكامل فيه أركان التشبيه من مشبه وهو القلوب القاسية، والمشبه به وهي الحجارة ؛ غير أن صديق خان يرى فيه رأيين:

الأول" على أنه استعارة في قوله:" (قست قلوبكم) أي يبست وجفت. وقيل: غلظت واسودت، وقساوة القلب انتزاع الرحمة منه، والقسوة: الصلابة واليبس، وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله مع وجود ما يقتضي خلاف هذه القسوة من إحياء القتيل وتكلمه وتعيينه لقاتله، وفيه استعارة تبعية تمثيلية تشبيها لحال القلوب في عدم الاعتبار والاتعاظ بالقسوة "(٧).

ثم يعود في فقرة أخرى فيذهب إلى التشبيه في قوله:" فالعطف على قوله كالحجارة أي هذه القلوب هي كالحجارة أوهي أشد قسوة منها فشبهوها بأي الأمرين شئتم فإنكم مصيبون في هذا التشبيه " (٨).

إن صديق خان لا يجري تأويل الآية كما درج عليها البلاغيون السابقون، بل يتأول للآية وجهين من وجوه البيان:

الأول التأويل على الاستعارة، والثاني التأويل على التشبيه. استقراء لسياق الآية اللغوي.

ثانيا: التشبيه المفصل:

* في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة– ١٤٦).

تشبيه مفصل كما يقول:(كما يعرفون أبناءهم، ولا يشتبه عليهم كما لا تشتبه عليهم أبناؤهم من أبناء غيرهم) (٩).

* في قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ) (البقرة–١٦٥)

شبه حب الكفار للأصنام كحب المؤمنين لله، بل حبهم لله أشد (١٠).

* في قوله تعالى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) (النساء- ١٦٣).

يرى أنه تشبيه جاء فيه نوح مشبها به في قوله: (وقيل غير ذلك أي إيحاء مثل إيحائنا إلى نوح أو حال كونه مشبها بإيحائنا إلى نوح) (١١)، فالتشبيه نوعان: تشبيه النبي بأي نبي، أو تخصيص التشبيه بالإيحاء إلى نوح.

* في قوله تعالى: (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) (الكهف- ٢٩).

استشهد صديق بقول الزجاج في تشبيه الماء بالمهل وهو الرصاص المذاب في قوله: (قال الزجاج: إنهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب أو الصفر) (١٢).

* في قوله تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) (الأنبياء – ١٠٤)،

وفي تفسير الآية يؤول صديق خان السجل على معنيين: ((يوم نطوي) بنون العظمة أي: اذكر يوم نطوي (السماء كطي السجل)، وقرئ تطوي بالفوقية ورفع السماء، وبالتحتية على معنى يطوي السماء، والأولى أظهر وأوضح، والطي في هذه الآية يحتمل معنيين:

أحدهما: الذي هو ضد النشر، ومنه: (السموات مطويات بيمينه)

والآخر: الإخفاء والتعمية والمحو، لأن الله سبحانه يمحو ويطمس رسومها، ويكدر نجومها، والمراد بالسماء الجنس الصحيفة أي طيا كطي الطومار للكتابة) (١٣) فالتشبيه له تأويلان على النشر أو الإخفاء.

* في قوله تعالى: (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) (الفرقان- ٤٤).

حيث جعل الكفار كالبهائم التي لا تفهم، يقول: (كالبهائم) التي هي مسلوبة العقل والفهم، فلا تطمع فيهم فإن فائدة السمع والعقل مفقودة، وإن كانوا يسمعون ما يقال لهم، ويعقلون ما يتلى عليهم، ولكنهم لما لم ينتفعوا كانوا كالفاقد له) (١٤).

* في قوله تعالى: (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا)(الإنسان- ١٩)

وقد أعجب صديق خان بالتشبيه باللؤلؤ المنثور لأنه أجمل، يقول: (قال أهل المعاني: إنما شبهوا الانتشار لأنهم في الخدمة ولو كانوا صفا لشبهوا بالمنظوم، قيل إنما شبههم بالمنثور لأنهم سراع في الخدمة بخلاف الحور العين فإنه شبههن باللؤلؤ المكنون لأنهن لا يمتهن بالخدمة)([١٥])

وبهذا نوع صديق خان في تأويله للتشبيه المفصل.

ثالثا: التشبيه التمثيلي:

* في قوله تعالى: "مَثَلُهُم كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱستَوقَدَ نَارا فَلَمَّآ أَضَآءَت مَا حَولَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِم وَتَرَكَهُم فِي ظُلُمَٰت لَّا يُبصِرُونَ"(البقرة- ١٧).

ينتبه صديق خان لطبيعة المثل، فيشرح ماهية المثل بقوله: "المثل قول يشبه قولا آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره، ولهذا ضرب الله الأمثال في كتابه، وهو أحد أقسام القرآن السبعة، ولما ذكر حقيقة وصف المنافق عقبه بضرب المثل زيادة في كشف البيان، لأنه يؤثر في القلوب ما لايؤثره وصف الشيء في نفسه، ولأن المثل تشبيه الشيء الخفي بالجلي، فيتأكد الوقوف على ماهيته وذلك هو النهاية في الإيضاح، وشرطه أن يكون قولا فيه غرابة من بعض الوجوه، واستوقد بمعنى أوقد، مثل استجاب بمعنى أجاب، فالسين والتاء زائدتان، ووقود النار: سطوعها وارتفاعه لهبها "([١٦]).

* في قوله تعالى: " إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَستَحيِۦٓ أَن يَضرِبَ مَثَلا مَّا بَعُوضَة فَمَا فَوقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعلَمُونَ أَنَّهُ ٱلحَقُّ مِن رَّبِّهِم وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرا وَيَهدِي بِهِۦ كَثِيرا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلفَٰسِقِينَ: (البقرة-٢٦).

وصديق خان يفسر الآية على المثل، ثم يعود فيفسرها على معنى المشاكلة، وهنا دخل في باب التأويل كما يقول: " وقد اختلفوا فى تأويل ما في هذه الآية من ذكر الحياة، فقيل: ساغ ذلك لكونه واقعا في الكلام المحكي عن الكفار، وقيل: هو من باب المشاكلة، وقيل: هو جار على سبيل التمثيل، وضرب المثل: اعتماده وصنعه، والبعوض هو صغار البق، والواحدة بعوضة وسميت بذلك لصغرها، قاله الجوهري وغيره"([١٧]).

* في قوله تعالى: "وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ " (البقرة- ١٧١)،

وأول المفسر هذا التشبيه حيث قال: " فيه تشبيه واعظ الكافرين وداعهم، ومحمد – صلى الله عليه وسلم – بالراعي الذي ينعق بالغنم أو الإبل فلا تسمع (إلا دعاء ونداء)، ولا تفهم ما يقول، هكذا فسره الزجاج والفراء وسيبويه، وبه قال جماعة من السلف،

قال سيبويه: لم يشبهوه بالنعاق بل بالمنعوق به من البهائم، والمعنى مثلك يا محمد – صلى الله عليه وسلم – ومثل الذين كفروا كمثل النعاق والمنعوق من البهائم التي لا تفهم، فحذف لدلالة المعنى عليه، وقال قطرب: المعنى مثل الذين كفروا في ادعائهم الآلهة الجماد كمثل الصائح في جوف الليل فيجيبه الصدى فهو يصيح بما لا يسمع، ويجيبه ما لا حقيقة فيه.

وقال البيضاوي: المعنى أن الكفرة لانهماكهم في التقليد لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم، فهم كالبهائم التي ينعق عليها فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه، وتحس بالنداء ولا تفهم معناه.

وقال المفسر: إن الناس اختلفت على هذا اختلافا كثيرا، واضطربوا اضطرابا شديدا، والذى لخصناه أقوال مهذبة لكل قول منها تقرير، ذكره السمين، والنعيق زجر الغنم والصياح بها، والعرب تضرب المثل براعي الغنم في الجهل، ويقولون: أجهل من راعى ضأن،

وقال ابن عباس: مثل الذين كفروا كمثل البقر والحمار والشاة إن قلت لبعضها كلاما لم يعلم ما تقول غير أنه يسمع صوتك، كذلك الكافر إن أمرته بخير أو نهيته عن شر ووعظته لم يعقل ما تقول غير أنه يسمع صوتك، ونحوه قال مجاهد، والدعاء والنداء بمعنى واحد وسوغ العطف اختلاف اللفظ."[١٨]

وبذلك يكون المفسر أخذ كل الأوجه البلاغيه لهذه الآية وتناولها من كل جانب، وذكر لنا آراء المفسرين. ونرى أنها تكون من باب التشبيه التمثيلي.

* في قوله تعالى " لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ فَمَن يَكۡفُر بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِن بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ:(البقرة- ٢٥٦)'

وقد أول المفسر العروة الوثقى على التشبيه التمثيلي والاستعارة في قوله: (وقد اختلف المفسرون في تفسير العروة الوثقى بعد اتفاقهم على أن ذلك من باب التشبيه التمثيلي لما هو معلوم بالدليل بما هو مدرك بالحاسة، فقيل: المراد بالعروة الإيمان، وقيل: الإسلام، وقيل: لا اله إلا الله، وقيل أيضا من باب الاستعارة المفردة حيث استعيرت العروة الوثقى للاعتقاد الحق، ولا مانع من الحل على الجميع)([١٩]).

* في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (البقرة-٢٦٤)،

حيث يشرحها على ظاهرها من غير تأويل: (مثل الله سبحانه هذا المنافق بصفوان عليه تراب يظنه الظان أرضا منبتة طيبة، فإذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب (فتركه) أي الصفوان يعني بقى (صلدا) أي أجردا من التراب الذي كان عليه، وأملس ليس شيء من الغبار أصلا، وكذلك حال هذا المرائي يوم القيامة فإن نفقته لا تنفع، قال ابن عباس: صلدا أي يابسا جاسيا لا ينبت شيئا) ([٢٠]).

* في قوله تعالى: " الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا البَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة- ٢٧٥)

وقف المفسر عند هذه الآية وقال: إنه من التشبيه المعكوس حيث قال: في قوله تعالى "إنما البيع مثل الربا " أي أنهم جعلوا البيع والربا شيئا واحدا، أي اعتقدوا مدلول هذا القول وفعلوا مقتضاه أي ذلك العقاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع في سلك واحد لإفضائهما إلى الربح فاستحلوه استحلالا، وقالوا: يجوز بيع درهم بدرهمين، وإنما شبه البيع بالربا مبالغة بجعلهم الربا أصلا والبيع فرعا،أي إنما البيع بلا زيادة عند حلول الأجل كالبيع بزيادة عند حلوله فإن العرب لا تعرف ربا إلا ذلك، وهذا من عكس التشبيه مبالغة وهو أعلى مراتبه نحو قولهم: القمر كوجه زيد، والبحر ككفه، إذا المشبه مشبه به)[٢١].

* فى قوله تعالى: " وَلَو شِئنَا لَرَفَعنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخلَدَ إِلَى ٱلأَرضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلكَلبِ إِن تَحمِل عَلَيهِ يَلهَث أَو تَترُكهُ يَلهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلقَومِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقصُصِ ٱلقَصَصَ لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ" (الأعراف-١٧٦).

قال المفسر: في قوله تعالى "فمثله كمثل الكلب " أي صار لما انسلخ عن الآيات ولم يعمل بها منحطا إلى أسفل رتبة مشابها لأخس الحيوانات في الدناءة مماثلا له أقبح أوصافه.

قال تعالى " إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث "أي في كلتا حالتي قصد الإنسان له وتركه هو لاهث سواء زجر أو ترك، طرد أو لم يطرد، شد عليه أو لم يشد، وليس بعد هذا في الخسة والدناءة شيء.

والمعنى مثله كمثل الكلب حال كونه متصفا بهذه الصفة أي أن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوي عن المعصية فى جميع أحواله سواء وعظه الواعظ، وذكره المذكر وزجره الزاجر أولم يقع شيء من ذلك نقال الفتى كل شئ يلهث ؛ فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث فى حال الكلال وحال الراحة وحال المرض وحال الصحة وحال الري وحال العطش، فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته، فقال: إن وعظته ضل، وإن تركته ضل، فهو كالكلب إن تركته لهث وإن طردته لهث،

فقوله تعالى " وإن تدعوهم إلى الهدي لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتهم أم أنتم صامتون "و اللهث وإخراج اللسان لتعب أو لعطش أو غير ذلك، قاله الجوهرى: معنى الآية إنك إذا حملت على الكلب نبح وولى هاربا، وإن تركته شد عليك ونبح فيتعب نفسه مقبلا عليك ومدبرا عنك فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان، يقال لهث الكلب يلهث إذا أدلع لسانه)[٢٢]

رابعا: التشبيه البليغ:

* في قوله تعالى: (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ (١٨) (البقرة- ١٨)،

فسر صديق خان الآية على ظاهر تشبيهها بقوله: ((صم): أي عن استماع الحق لأنهم لا يقبلونه، وإذا لم يقبلوه فكأنهم لم يسمعوه، والصمم: الانسداد، (بكم) أي خرس عن النطق بالخير فهم لا يقولونه، والأبكم الذي لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس، وقيل: الأبكم والأخرس واحد، (عمي) أي لا بصائر لهم يميزون بها بين الحق والباطل، ومن لا بصيرة له كمن لا بصر له فهو أعمى، والعمى ذهاب البصر، كانت حواسهم ولكن لما سدوا عن سماع الحق آذانهم وأبوا أن تنطق به ألسنتهم، وأن ينظروا إليه بعيونهم، جعلوا كمن تعطلت حواسه وذهب إدراكه) (٢٣).

* في قوله تعالى: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَار وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (البقرة- ٧٤).

يفسر الآية على ظاهرها دون تأويل في قوله: ("فهى " أى قلوب فى الغلظة والشدة "كَٱلْحِجَارَةِ أَو أَشَدُّ قَسوَة "أى كالشيء الصلب الذى لا تخلخل فيه.

قيل (أو) فى قوله "أو أشد قسوة "بمعنى الواو كما في قوله تعالى "آثما أو كفورا" وقيل: هي بمعنى بل واختاره أبو حيان، وعلى أن "أو" على أصلها أو بمعنى الواو فالعطف على قوله كالحجارة، أي هذه القلوب هي كالحجارة أو هي أشد منها قسوة فشبهوها بأي الأمرين شئتم فإنكم مصيبون في هذا التشبيه، وقد أجاب الرازي فى تفسيره عن وقوع (أو) ههنا مع كونها للترديد الذى لايليق بعلام الغيوب بثمانية أوجه) (٢٤).

* في قوله تعالى: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ)(البقرة- ١٧١).

فسر صديق خان الآية على ظاهرها بقوله: ((ومثل الذين كفروا) في اتباعهم آباءهم وتقليدهم وفي ذلك نهاية الزجر لمن لا يسمعه عن أن يسلك مثل طريقهم في التقليد (كمثل الذي ينعق بما لا يسمع) فيه تشبيه واعظ الكافرين وداعهم وهو محمد – صلى الله عليه وسلم- بالراعي الذي ينعق بالغنم أو الأبل فلا تسمع) (٢٥).

* في قوله تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ). (البقرة- ٢٢٣).

يفسر الآية على ظاهرها بدون تأويل في قوله: (فقد شبه مايلقى في أرحامهم من النطف التي منها النسل بما يلقى في الأرض من البذور التي منها النبات بجامع أن كل واحد منهما مادة لما يحصل منه، ((فأتوا حرثكم) أي محل زرعكم واستنباتكم وهو القبل على سبيل التشبيه) (٢٦).

* فى قوله تعالى: " وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ (الأعراف- ٥٨).

وقد أول المفسر البلد الطيب بسريع الفهم أو بالقلب القابل للوعظ وقلب المؤمن والبلد الخبيث بعكسه استنادا إلى ما ورد في تفسير من كان قبله، في قوله: (وقيل معنى الآية التشبيه، شبه تعالى السريع الفهم بالبلد الطيب، والبليد بالبلد الخبيث، ذكره النحاس. وقيل: مثل هذا للقلوب فشبه القلب القابل للوعظ بالبلد الطيب، والنابي عنه بالبلد الخبيث، قاله الحسن، وقيل: هو مثل لقلب المؤمن والمنافق، قاله قتادة، وقيل: هو مثل للطيب والخبيث من بنى آدم، قال مجاهد)(٢٧).

* في قوله تعالى: "وَلَقَد ذَرَأنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرا مِّنَ ٱلجِنِّ وَٱلإِنسِ لَهُم قُلُوب لَّا يَفقَهُونَ بِهَا وَلَهُم أَعيُن لَّا يُبصِرُونَ بِهَا وَلَهُم ءَاذَان لَّا يَسمَعُونَ بِهَاۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلأَنعَٰمِ بَل هُم أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلغَٰفِلُونَ(الأعراف- ١٧٩).

ذكر المفسر الآية على ظاهرها في قوله: ("أولئك كالأنعام بل هم أضل "ذكر المفسر فى قوله "أولئك" أى المتصفون بهذه الأوصاف "كالأنعام"أي البهائم في انتفاء انتفاعهم بهذه المشاعر مع وجودها فيهم،والعرب تقول مثل ذلك لمن ترك استعمال بعض جوارحه فيما لا يصلح له ثم جعلهم شرا من الأنعام فقال " بل هم أضل" أى حكم عليهم بأنهم أضل منها لأنها تدرك بهذه الأمور ما ينفعها ويضرها فتنتفع بما ينفع وتتجنب ما يضر، وهؤلاء لا يميزون بين ما ينفع وما يضر باعتبار ما طلبه الله منهم وكلفهم به بل يقدمون على النار معاندة " أولئك " هم الغافلون" حكم عليهم بالغفلة الكاملة لما هم عليه من عدم التمييز الذى هو من شأن من له عقل وبصر وسمع)(٢٨).

الخاتمة:(نتائج البحث)

توصل البحث إلى عدد من النتائج، أهمها:

١- تفسير فتح البيان لصديق خان يجمع بين التفسير بالمنقول والتفسير بالمعقول.

٢- تفسير فتح البيان لصديق خان اشتمل على جميع ما في كتب التفاسير من بدائع الفوائد مع زوائد فرائد وقواعد شوارد من صحيح الدراية وصريح الرواية.

٣- التأويل عند صديق خان هو صرف النية على معنى يحتمل توافق ما قبلها وما بعدها غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط، فقد رخص فيه لأهل العلم.

٤- تنوع التأويل بالتشبيه عند صديق خان إلى: تشبيه مرسل وتشبيه مفصل وتشبيه تمثيلي وتشبيه بليغ .

٥- استفادة صديق خان من السياق اللغوي في استنتاج الصوة التشبيهية وتحديد نوعها.

٦- استفادة صديق خان من الدلالات اللغوية للمفردات للنفاذ إلى دلالات الصورة التشبيهية وتحديد نوعها.

٧- استعانة صديق خان برأي اللغويين كالزجاج وسيبويه والفراء في تأويل التشبيه وتحديد نوعه.

٨- استفادة صديق خان من آراء المفسرين السابقين كالبيضاوي في تأويل التشبيه.

الهوامش

[1] – فتح البيان ج١ ص٣٣١

[2] – فتح البيان ج٣ص١٨٠

[3] – فتح البيان ج٣ ص ٢٥٨

[4]– فتح البيان ج٤ ص٣٨٣

[5] – فتح البيان ج٦ ص١٦٥

[6] – فتح البيان ج٦ ص ١٨٤

[7] – فتح البيان ج١ ص٢٠١

[8] – فتح البيان ج١ ص٢٠١

[9] – فتح البيان ج١٠ ١٣١

[10] – فتح البيان ج١ ص٣٣١

[11] – فتح البيان ج٣ ص ٢٩٨

[12] – فتح البيان ج٨ص٤٤

[13] – فتح البيان ج٨ص٣٧٧

[14] – فتح البيان ج٩ ص٤٢٣

[15] – فتح البيان ج١٤ ص ٤٧٣

[16] – فتح البيان ج١ص٨٩

[17] – فتح البيان ج١ص١١٣

[18] – فتح البيان ج١ ص٢٧٢

[19] – فتح البيان ج٥ص١٠٠

[20] – فتح البيان ج٢ص١٢١

[21] – فتح البيان ج ١ ص ٤٥٧

[22] – فتح البيان ج٥ ص٨٠–٨١

[23] – فتح البيان ١ص ٩٩

[24] – فتح البيان ج١ص٢٠١

[25] – فتح البيان ج١ص٣٣٩

[26] – فتح البيان ج١ص٤٥٠

[27] – فتح البيان ج ٤ص٣٨٤

[28] – فتح البيان ج٥ص ٨٣

المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

*صديق خان: (صديق بن حسن بن علي الحسين القنوجي البخاري ت ١٢٤٨هـ): فتح البيان في مقاصد القرآن ، عني بطبعه وقدم له: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري ، بيروت المكتبة العصرية ١٩٩٢م.

ثانيا: المراجع:

*أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، القاهرة مؤسسة هنداوي ٢٠١٧م

*بكرى شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد .. علم البيان, بيروت, دار العلم للملايين ، ط ١٩٩٠م .

* الجرجاني : (عبد القاهر بن عبد الرحمن ، أبو بكر ت ٤٧١هـ) : أسرار البلاغة ، تحقيق: محمود شاكر أبو فهر ، مكتبة الخانجي القاهرة ، ط١ ١٩٩١ م

*الجرجاني: (عبد القاهر بن عبد الرحمن ، أبو بكر ت ٤٧١هـ): دلائل الإعجاز ، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ١٩٩٢م

*الجرجاني: (محمد بن على بن محمد الجرجانى ت٧٢٩هـ): الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة. تحقيق عبد القادر حسين ، القاهرة, مكتبة الآداب ١٩٩٧م

*جمال عبد الحميد زاهر: خاتمة القصيدة في شعر البحتري- دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر- مصر- الأولى ٢٠٢٤م.

*السكاكي: (يوسف بن أبي بكر محمد بن علي الخوارزمي ، سراج الدين ت٦٢٦هـ) : مفتاح العلوم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ م١٩٨٧ م

*الطبري: محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠هـ: تفسير الطبري: تحقيق: محمود شاكر, القاهرة دار المعارف سنة ١٩٥٨م

*عبد العاطي غريب علي علام: البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين: عبد القاهر الجرجاني وابن سنان الخفاجي, بيروت دار الجيل ١٩٩٢م ط١

*القزويني (جلال الدين أبو المعالي ، الخطيب ت ٧٣٩هـ): الإيضاح في علوم البلاغة . تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي , القاهرة مكتبة الكليات الأزهرية د. ت

*المتنبي :أبو الطيب: ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري , القاهرة مصطفى البابي الحلبي . ضبطه مصطفى السقا وآخرون, ١٩٧١م

*يوسف أبو العدوس ، مدخل إلى البلاغة العربية (علم المعاني – علم البيان – علم البديع) ، الأردن , دار المسيرة, ٢٠٠٦م

*يوسف الصديق – نحو قراءة جديدة للخطاب القرآني ، برنامج مسارا – قناة الجزيرة صيف ٢٠٠٦م

ثالثا: الرسائل الجامعية:

*زينب يوسف عبد الله هاشم: الاستعارة عند عبد القاهر الجرجاني , رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة العربية . المملكة العربية السعودية – وزارة التعليم – جامعة أم القرى ١٩٩٤ م

*سعيدة مداس: المجاز في دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني . دراسة تداولية . مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الآداب واللغة العربية , الجزائر –كلية الآداب واللغات ,٢٠١٦م

رابعا: الدوريات:

١- حبيب مهدي عوض الشمري: علوم القرآن عند الأمير صديق خان في كتابه فتح البيان – مجلة كلية دار العلوم- جامعة القاهرة – ٢٠١٣ م .

٢- سمير عبدالحميد إبراهيم: الشيخ صديق حسن خان (القنوجي) أمير بهوبال- مقال- مجلة الفيصل- ع ٣٠٢ أكتوبر / نوفمبر ٢٠٠١م.

٣- صائمة رشيد: العلامة صديق حسن خان القنوجي ومساهمته في الدراسات العربية- مقال- مجلة نقيب الهند- مارس ٢٠٢١م.

٤- طارق محمود شفيع: الشيخ صديق حسن خان القنوجي وإسهامه في الأدب العربي- مقال- مجلة القسم العربي- جامعة بنجاب- لاهور- باكستان- العدد الثاني والعشرون- ٢٠١٥م.

٦- كمال غفور عبد الكريم: الظواهر الدلالية في" فتح البيان في مقاصد القرآن" لصديق خان القنوجي "ت. ١٣٠٧ هـ" – مجلة كلية التربية للبنات- جامعة تكريت – ٢٠٢٢م.

٨- هادي شاكر محمود مهدي: الترجيح بدلالة السنة النبوية عند القنوجي من خلال تفسيره "فتح البيان في مقاصد القرآن" .. دراسة تطبيقية – مجلة الكلية الإسلامية الجامعة- الجامعة الإسلامية في النجف الأشرف- مجلد ١- العدد ٧٠- ٢٠٢٣م.